صفحة تصدر بالتعاون مع الجمعية النفسية العراقية
iraqipa@hotmail.com

المشهد النفسي

... أسخف أنواع السلوك

أ. د. قاسم حسين صالح

العامل الحاسم في تحديد أخلاقية سلوك الفرد أو الجماعة هو: ما يحمله هذا الفرد من اتجاهات نحو الآخرين. ونعني بالاتجاه، المعتقدات والآراء التي يحملها الفرد بخصوص جماعة أخرى. والذي لا يدركه العامة من الناس، أن المعتقد هو الذي يهيئ الفرد ويعبئه نفسياً ويجعله مستعداً لأن يتصرف بطريقة معينة، حتى لو كان ذلك التصرف منافياً للقيم والأخلاق والمنطق.

ومع أن أي إنسان في أي مجتمع كان يحمل اتجاهات كثيرة، فان أخطرها على الإطلاق هو التعصب أو التحيز. ليس فقط لأنه تفكير غير عقلاني وسلوك غير حضاري وانفعال أهوج وساذج، بل لأنه يدفع بصاحبه إلى أن يسفك دماء من يختلف معه في المعتقد بحقد حار ودم بارد.

والتعصب أو التحيز ظاهرة عالمية واسعة. والمضحك المبكي فيها أن بعض حالاته تحدث لأمور تبدو للآخرين في منتهى السخافة. ففي بداية القرن العشرين- مثلاً-القي القبض في مدينة أمريكية على أمريكي من أصل أفريقي يدعى (وليم كار) بتهمة قتله بقرة تعود لعائلة بيضاء، وما أن شاع الخبر بين أهل المدينة حتى تجمهروا وغص بهم الشارع وهجموا على مركز الشرطة وأخذوا(وليم كار)من (الشريف)الذي لم يمانع من تسليمه لهم، وشنقوه من دون محاكمة!

ويحصل في القرن الواحد والعشرين، هنا عندنا في العراق ما هو أشد سخفاً. فماذا تقول في شخص يلغم نفسه بالمتفجرات وينتحر بين المصلين في جامع للشيعة، وآخر يفجر نفسه بين المعزين في مجلس فاتحة (لامرأة شيعية) لا لسبب إلا لأن الشيعة مارسوا عملية الانتخاب. وأغلب الظن أن بين أولئك المصلين الذين فجرهم من لم ينتخب أو قاطع الانتخابات أصلاً، وان مجلس الفاتحة كان لعائلة (سنية) وليست (شيعية).

وماذا تقول في قتل أولاد اثنين لمدير شرطة(شيعي)وقتل أولاد اثنين لشخصية سياسية (سني)، سوى انه التعصب الذي يقود صاحبه إلى فعل سخيف وأحمق وجريمة مركبة، فضلا عن انه يأتي بنتائج سلبية على جماعته و(معتقده).

وبالرغم من أن خطاباتنا السياسية والثقافية تقول إن المجتمع العراقي غير متعصب طائفياً ولا عرقياً(وهي دعوات مباركة) فان علينا أن نكون واقعيين ونعترف بحقيقتين:

الأولى: لا يوجد مجتمع متعدد الطوائف والمذاهب والأعراق خال من التعصب أو التحيز.

والثانية: لا يوجد بين الناس حتى من هو أكثرهم ثقافة غير متحيز لطائفته أو قوميته. لأن التحيز بوصفه شعوراً بالانتماء، يمنح الفرد الإحساس بالفخر والاعتزاز. فالعربي يعتز بقوميته والكردي يعتز بكرديته وكذلك التركماني. . . . . والشعور نفسه فيما يخص الطائفة والمذهب؛وهو اعتزاز مشروع ومهذب إذا منحه الآخر للآخر أيضاً.

وعليه فان الخطوة الأولى لخفض التعصب هي أن نكون على وعي ودراية بتحيزاتنا، وان نمارسها بسلوك مهذب. وهذا يتطلب إعادة تشكيل أو إعادة صياغة للصور النمطية التي تحملها الأعراق والطوائف في المجتمع العراقي إزاء بعضها البعض، في مقدمتها: خفض الشعور النفسي الخفي الذي نقسم فيه الناس إلى (نحن) و(هم)، ونزعتنا المتحكمة فينا التي تقودنا إلى تفضيل (نحن)بالمطلق حتى لو كان(هم)افضل من (نحن) في كثير من الأمور.

في قراءة لمجلات يوزعها الجيش الأمريكي بين تلاميذ المدارس

ثقافة السلاح تنخر شخصية الطفل العراقي

فارس كمال نظمي
جامعة بغداد

لمن كلّ هذا الرصاصْ؟
لأطفال كوريّة البائسينْ،
وعمال مرسيليا الجائعينْ،
وأبناء بَغدادَ والآخرينْ
إذا ما أرادوا الخلاصْ
حديدٌ
رصاصٌ
رصاصٌ
رصاصْ!

بدر شاكر السياب
(الأسلحة والأطفال)

منذ نصف قرن تقريباً، هزّ السياب بملحمته(الأسلحة والأطفال) الضمير الرومانسي لمجتمع كان يظن أن قيم التحرر والعدل والسلم قد أزهرت في أرضه، وصارت وشيكة القطاف!ولكن يبدو أن هذه الأعوام الخمسين لم تكن كافية ليتعلم أطفالنا لغة أخرى غير لغة الرصاص، بل إنها كُرست كلياً لتأليه آلة، بل ظاهرة اسمها (السلاح)، غُزت تدريجياً كل البيوت، ومست أغلب القبضات، واستوطنت في المشاعر والعقول والذاكرات، وأخيراً. . . أصبحت (لعبة) يقتنيها الآباء لأطفالهم ليقضوا بها وقتهم (البريء)، سواء كانت لعبة يدوية تشبه سلاحاً خفيفاً، أو برامجيات إلكترونية يمارس فيها الطفل أعمال القتل والحرق والتفجير وإفناء الآخرين على شاشة مجسمة!

فكيف أصبحت لعب الأسلحة الهدية المفضلة لدى الطفل العراقي؟وما العوامل المباشرة وغير المباشرة التي أسهمت في الترويج لهذه الظاهرة المدمرة لقيمة الطفولة؟ وما الميكانزمات النفسية التي تقف خلف هذا التجاذب بين الطفل والسلاح؟

•الطفل العراقي يتماهى لا شعورياً بالعنف الشامل المحيط به فيدجج نفسه بلعب الأسلحة

الاحتلال وتجذير العنف

(الطفل فيلسوف صغير): هكذا وصف أحد علماء النفس الطفل في المراحل المبكرة من تطوره العقلي والأخلاقي، إذ أن قدرته على التفاعل الإدراكي والقيمي مع معطيات الواقع لا تقل في نوعها وكمها عن قدرة البالغ. هذه الحقائق النفسية، يدركها جيداً السياسي الأمريكي ذو المشروع الساعي إلى رسملة العالم وأمركته، عبر تفتيت شمولية العقل البشري وتقويض تماسكه، بإغراقه في دوامات العنف والإحباط والاغتراب واللاجدوى واللامعيارية.

ولنبدأ الحكاية من آخرها. فبعد أن بسط الجيش الأمريكي سلطته على أراضي العراق ومؤسساته السياسية والاقتصادية والتعليمية، باشرت وحدات متخصصة فيه بطباعة مجلات مصورة للأطفال باللغتين العربية والإنجليزية، وتوزيعها منذ بداية العام ٢٠٠٤م بين المدارس الابتدائية، في مختلف المناطق الواقعة تحت سيطرته. وبعد تحليلنا لمحتوى أعداد من هذه المجلات، اتضح ما يأتي:

❖إنها تسعى لإقناع الطفل بفكرة أساسية مفادها: (إن العالم مكان عدائي، يستحق القلق والحيطة والتجنب)، من خلال ترويجها المبرمج لمفردات لغوية ذات مضمون عنفي غير مألوف لدى الطفل: (قتل/ مجرم/ أشرار/ شخص مريب/ أسلاك شائكة/ حواجز كونكريتية...).

❖إنها تحاول تثقيف الطفل بأنواع الأسلحة ومصطلحاتها، لغة وصوراً: (قنبلة يدوية / مسدس/ رشاشة/ بندقية/ قاذفة صواريخ / قاذفة قنابل/ خوذة/ كيس الذخيرة/ سكين/ مركبات عسكرية/ رجال ونساء بملابس عسكرية...).

❖إنها تسعى، وتحت شعار (التسامح والتعددية)، إلى بث مشاعر التعصب والطائفية بأنواعها ضمناً، من خلال توكيدها مفردات، مثل: (مسلمون/ مسيحيون/ عرب/ أكراد/ شيعة/ سنة)، بأسلوب مفتعل ومكرر، لا يتلاءم مع التطور الادراكي للطفل. فمثل هذه المفردات تخاطب انفعالات الطفل وتزرع شكوكاً وحواجز نفسية بينه وبين أقرانه في المدرسة، ما دام غير قادر على أدراك محتواها الديني أو الطائفي أو العرقي.

❖إن جميع المضامين السابقة الذكر، يجري دسها في هذه المجلات باستعمال تكنيك (كلمة حق يراد بها باطل)، من خلال (إقران شرطي) دقيق لمفردات العنف والسلاح والطائفية، بنصائح وتعليمات وقصص وصور ملونة تعد مؤثرة في سيكولوجية الطفل بسبب جاذبيتها وبساطتها و(عفوية) طروحاتها. ففي أحد هذه الأعداد مثلاً، يتوجه عسكري أمريكي بملامح مبتسمة، بالحديث إلى الأطفال العراقيين، قائلاً: (تظهر في الصورة التالية جميع المعدات التي نرتديها عند وجودنا في أنحاء بغداد، نحن بحاجة لكل هذه العدة لتساعدنا في مهامنا لحمايتكم من الأخطار). وتظهر في الصفحة التالية فعلاً تفصيلات دقيقة لتلك الأسلحة والتجهيزات يرتديها عسكري أمريكي له وجه طفل، مقرونة (شرطيا) بصورة طفل عراقي يتطلع إليها بإعجاب. وهناك غيرها عشرات من الأمثلة المشابهة.

لقد أسهمت هذه المطبوعات الموجهة بأداء سيكولوجي حاذق، في بث ثلاثة قيم أساسية في شخصية الطفل العراقي:

١-السلاح أمر مألوف لا يستدعي النفور أو الاستغراب، بوصفه جزءاً اعتيادياً من الحياة اليومية للناس.

٢-السلام والأمان غايتان مطلوبتان، ولكن لا يحققهما إلا السلاح بيد الأشخاص (الكفوئين) و(الخيرين).

٣- مهما كنا متسامحين، إلا أن هناك على الدوام شخص آخر إلى جوارنا (مختلف) عنا، إما بدينه أو بطائفته أو بعرقه.

إن قيم العنف الآنية التكوين هذه، والتي تنتمي إلى مرحلة الاحتلال بعد نيسان ٢٠٠٣م، مضافاً إليها قيم عنف متراكمة ترجع جذورها إلى أربعة عقود دموية مضت من تأريخ العراق، تشكل جميعاً الإطار السوسيولوجي المفسّر لهيمنة ثقافة السلاح على الطفولة العراقية.

ولكن يبقى السؤال: ما القوانين النفسية المفسّرة لهذه الحميمية التي صارت تميز علاقة الطفل العراقي بلعب الأسلحة؟

سيكولوجيا لعب الأسلحة

عندما تمتلىء الذاكرة الجمعية بمفاهيم العنف وتدهور قيمة الحياة، وتجري على ألسنة الناس على نحو يومي مألوف مفردات (الخطف) و(الذبح) و(التفخيخ) و(التفجير) و(الأشلاء البشرية)، في حين تجوب مدنهم بإسلوب استعراضي عرباتٌ عسكرية تقودها مخلوقات ميكانيكية الحركة مدججة بأسلحة متنوعة الموديلات تثير الاستغراب والاشمئزاز والرعب لديهم؛وعندما تحجب سماؤهم على مدار الساعة بالمروحيات الهادرة وبأعمدة الدخان وصدى الانفجارات الغامضة؛عندها لا يكون أمام الطفل العراقي، وهو في أدق مراحل نموه الوجداني والأخلاقي، إلا أن يتمسك بواحدة أو أكثر من ثلاث ستراتيجيات نفسية تحفظ له (تكيفه) مع عالم مشبع بثقافة السلاح:

١- فإما أن يتماهى (يتوحد) لا شعورياً بالعنف الشامل المحيط به، فيدجج نفسه بأشباه الأسلحة، وينهمك في ألعاب حربية يبتكرها مع نفسه أو مع الآخرين، أو في أحلام يقظة عدوانية تحقق له (خفضاً) في قلقه من رعب الخارج، بأن يصبح جزءاً منتمياً له وخاضعاً لقوانينه، عسى أن يأمن (لاشعورياً) قسوته، ما دام عاجزاً عن الحد من تأثيراته الكاسحة. وهذا ما يطلق عليه بـ(التوحد بالمعتدي)Identification with Aggressor.

٢- أو.. أن يتجه لمحاكاة أنموذج (رامبو) الذي أشاعته وروجت له الأفلام والألعاب الإلكترونية ووسائل الإعلام (بضمنها مجلات الأطفال التي يطبعها الجيش الأمريكي)، بوصفه مثالاً للجرأة والوسامة والحكمة والمعصومية من أي خطأ أو هزيمة، فضلاً عن التأثير المباشر لوجود الجندي الأمريكي في الشارع العراقي بهيأته (الرامبوية) المختالة، إذ توفر عملية المحاكاة هذه للطفل شعوراً مطلوباً بالأهمية والزهو والتحكم بالأشياء والثقة بالنفس، يسد بها المساحات النفسية التي لا تزال شاغرة في شخصيته في هذه المرحلة المبكرة من العمر، لاسيما في ظل التغييب شبه التام لنماذج إنسانوية الطابع في البيئة العراقية. وهذا ما يطلق عليه بـ (النمذجة) Modeling .

٣- أو. . أن يسعى إلى تفريغ توتراته وقلقه وعدوانيته الناجمة عن (صدمة الحرب) وعن إحباط حاجاته الطبيعية للعيش في بيئة آمنة، الأمر الذي أدى إلى تحويل طاقة هذه الحاجات لديه من مساراتها الطبيعية إلى مسارات عدوانية بديلة مصطنعة غايتها التطهير الانفعالي الفج. وما دام السلاح صار الرمز والأداة الأكثر انتشاراً في سلوك الناس وأقوالهم، فقد وجد الطفل العراقي نفسه يتجه إلى هذا الرمز بوصفه منفذاً مباشراً لانفعالاته المكبوتة. وهذا ما يطلق عليه بفرضية (الإحباط—العدوان) Frustration-Aggression .

ويذكر أن الدراسات النفسية أثبتت أن مجرد وجود السلاح أمام أبصار الناس يجعلهم أكثر عدوانية في سلوكهم نحو بعضهم، فكيف الحال مع طفل ولد وعاش في رحم الحروب؟!

.... ستنتهي قرقعة السلاح يوماً ما، وستهدأ الروح العراقية المعذبة، وستبرأ شوارعنا من عفونة البارود الممتزج بالجثث، وستستعيد الفراشات والكركرات فضاءاتها في سماء أطفالنا القادمين!ولكن قبل كل ذلك، لا بد من الإقرار أن سموم العنف، ومشاعر الخصومة مع الحياة، والخوف من المجهول، والشك بالآخرين، قد نفذت بنسبة فاعلة في شخصيات أطفالنا الحاليين، وإنهم سيكبرون بها، مدركين أو غير مدركين لها، لترسم لهم مسارات وأطراً سلوكية مقيدة لتفتح إنسانيتهم. لكن تلاقح الأجيال المستمر، واختلاط الورود بالجراح في الذاكرة الجمعية، سيتكفلان —بمرور المآسي— بإزاحة الوعي العراقي، خطوة شاقة، نحو ثقافة السلام.

•العنف والسلام والطائفية) هي مفردات المجلات التي يتسلمها تلاميذنا من الجيش الأمريكي

•صدمة الحرب حولت طاقة الطفل العراقي من مساراتها الطبيعية إلى أخرى غايتها التفريغ العدواني للانفعالات

برعاية وزارة حقوق الإنسان

الجمعية النفسية العراقية تشارك في مؤتمر للمعوقين

أقامت وزارة حقوق الإنسان العراقية (الورشة العلمية الأولى لرعاية حقوق المعوقين) في فندق شيراتون بأربيل للمدة من (١٦-١٧) آذار ٢٠٠٥م. وشارك فيها ممثلون من ثماني وزارات، وقدمت فيها أكثر من (١٥) ورقة، ومن بينها ورقتان تقدمت بهما الجمعية النفسية العراقية. وفيما يأتي نص الورقة التي تليت في المؤتمر، وهي من إعداد الدكتور (قاسم حسين صالح) رئيس الجمعية، والدكتور (هيثم أحمد الزبيدي) عضو الجمعية:

تعريف

إن النظرة الاجتماعية الإنسانية المعاصرة للمعوق ترى أنه إنسان له الحق في أن يحصل على الحب والاحترام والتقدير، وأن تأهيله يعد حقاً مشروعاً وليس منة من أحد، وأن من واجب الدولة والمنظمات الدولية توفير الفرصة للمعوق بالمشاركة في مجالات الحياة المختلفة وتأهيله لها.

برامج التأهيل

يعني التأهيل إعداد الفرد ليمارس نشاطاً معيناً يتناسب مع ما لديه من إمكانات وقدرات، سواء كان هذا الفرد معوقاً أو غير معوق. ويمكننا أن نقرر أن نوع وسرعة تطور المجتمع تعتمد على ما يوفره ذلك المجتمع من برامج تأهيل لعموم أفراده بوصفه شرطاً لازماً. والبرنامج هو مشروع يتم التخطيط له نظرياً، يناقش من قبل اختصاصيين، يحول بعد إقراره إلى تطبيق ميداني يفترض أن يكون نجاحه مضموناً. وتتنوع برامج تأهيل المعوقين، وفيما يأتي إيجاز بأهمها:

١- التأهيل المهني: تتعدد المهن وتتنوع، منها ما يحتاج إلى مهارة حركية (جهد عضلي)، ومنها ما يحتاج إلى تفكير (جهد عقلي)، ومنها ما يجمع بين النشاطين. وتتنوع أيضاً اهتمامات المعوقين بالمهنة التي يرغبون بممارستها.

إن مسألة إعداد برنامج للتأهيل المهني ليست صعبة، فتجارب البلدان كثيرة، والاختصاصيون موجودون، وبإمكانهم وضع مفردات هذا البرنامج، إنما الأهم هو إجراء مسح بالمعوقين يتضمن بيانات عن المهنة التي يرغبون فيها.

إن الأخذ بهذا المقترح يمكّن القائمين على البرنامج من موازنة إمكاناتهم (ما هو موجود) بما يحتاجه المشروع (ما هو مطلوب)، وتحديد نقطة الشروع لتنفيذه، ووضع جداول زمنية محسوبة بشيء من الدقة، أو في الأقل بعيدة عن العشوائية. ولضمان نجاح هذا البرنامج على مستوى العراق، فإننا نقترح البدء بتطبيقه في محافظة واحدة أولاً، وتعميمه، ومن ثم يعاد تقويمه.

٢-التأهيل الصحي: يتحدد التأهيل الصحي بالجانب البدني للمعوق. وأكثر ما يحتاج إليه المعوقون هو أطراف صناعية عليا وسفلى. وهناك سبيلان لتحقيق ذلك: إما التعاقد مع شركات أجنبية واستيراد هذه الأطراف، وإما تصنيعها محلياً (أو وطنياً). ودراسة البديلين بتعمق يفضي إلى ترجيح البديل الثاني (التصنيع الوطني). وعليه ينبغي تشكيل لجنة تخصصية تحسب كلفة هذا المشروع ومتطلباته المادية والبشرية وآلية تنفيذه. وهذا يتطلب أيضاً إجراء مسح بالإعاقات البدنية للمعوقين في العراق، وتحديد أصنافها ومستوياتها بموجب التصنيف المعتمد لهذا الغرض.

٣-التأهيل النفسي: ينعت المعوقون بكل أو بمعظم ما في قاموس الطب النفسي من أمراض أو اضطرابات، ويوصفون بأنهم يعانون الشعور الحاد أو الزائد بالنقص، واحتقار الذات، وكره الآخرين، وما إلى ذلك. ولا ينكر أن مثل هذه المشاعر قد تسيطر على المعوق بعد إصابته بالعوق مباشرة ولمدة معينة، ولكنها لا تبقى بنفس الحدة بعد خمس أو عشر سنوات من الإصابة.

ونريد أن ننبه إلى مسألة مهمة، هي أن هنالك حقيقة نفسية تقول أن الإنسان يتصرف في ضوء ما يتوقعه الناس منه. فهنالك صورة نمطية متشكلة في عقول الناس عن رجل الدين بأنه إنسان وقور، وصورة نمطية أخرى مناقضة عن (الشقاوة). وعليه فإن رجل الدين يتصرف في الشارع بأدب، والشقاوة يتصرف بالطريقة التي نعرفها، وكلاهما يتصرف في ضوء ما يتوقعه الناس منه. وقل الشيء نفسه عن صور أخرى لأفراد آخرين، ومنها الصورتان الخاصتان بالجندر. ولا يختلف الأمر فيما يخص المعوق، فالصورة المتشكلة لدى المجتمع عن المعوق بأنه يشعر بالنقص، وعاجز، وما إلى ذلك من صفات سلبية، فوضعناه نحن المجتمع بالدور الذي عليه أن يتصرف بموجبه، فإذا كنا ننظر إليه أنه يشعر بالنقص، فإننا إذا منحناه نظرة عطف وإشفاق أو نظرة سخرية وازدراء، فإنه في الحالين سيتصرف معنا بعدوانية.

وعليه فإن برنامج التأهيل النفسي ينبغي أن لا ينطلق من افتراض أن جميع المعوقين هم مرضى نفسياً، إنما من افتراض أن الناس جميعاً بحاجة إلى الثقافة النفسية ليتمتعوا بقدر أفضل من الصحة النفسية؛علماً بأنني خبرت من الحياة العملية وجود أشخاص معوقين هم أصح نفسياً من أشخاص خالين من العوق، ولو نظرتم حولكم لوجدتم كثيرين معوقين بدنياً، لكنهم أصحاء نفسياً، وكثيرين أصحاء بدنياً، لكنهم معوقون نفسياً.

مقترحات

لتحقيق هذه البرامج وبرامج التأهيل الأخرى: الأسري، والثقافي، والاجتماعي، ضمن خيمة المشروع الأوسع (رعاية حقوق المعوقين)، فإننا نضيف المقترحات الآتية:

❖أن تكون رعاية حقوق المعوقين مشروعاً وطنياً تسهم فيه مؤسسات الدولة، والجمعيات العلمية، ومنظمات المجتمع المدني.

❖تشكيل هيأة عليا بإسم (هيأة رعاية حقوق المعوقين العراقيين) ترتبط بمجلس الوزراء، وتكون وزارة حقوق الإنسان الجهة المنسقة للمشروع.

❖إجراء مسح شامل للمعوقين في العراق، على وفق استمارة تتضمن جميع البيانات التي تحتاجها برامج التأهيل.

❖تعريف واضح ومحدد للمقصود بالمعوق.